القلب عند متكلمي الصوفية

إعداد

دكتور/ فايـــز محمـــد خاطـــر

مجلة كلية دار العلوم العدد الثاني عشر ديسمبر ٢٠٠٤

القلب عند متكلمي الصوفية

د. فايز محمد خاطر

مقدمة

بسم الله . والحمد لله . ولا إله إلا الله

الحمـــد لله حمـــدا صادرا عن قوة وصفاء الاعتقاد . والصلاة والسلام على رسول الله النبي الأمي الذي أشرق بعلمه على الدنيا فأزاح ظلمات الجهل ، وعلى إله وصحبه وسلم .

فـــي مواكـــبة كتابة هذا البحث تعاني الساحة العربية والإسلامية آلاما كبيرة في أنحاء متفرقة من جسدها الغالي . جعلت القلب ينزف ، والعقل يصرخ، ودموع تحجرت على وجنتي الأمة.

وتـــنادت أصـــوات بتجديد الخطاب الديني بعضها يرنو في دهاء نحو إصلاح مدسوس وبعضها يرفض هذا الإصلاح الذي يحمل في ظاهره الإصلاح وفي باطنه التدمير والانحراف .

ولكننا نتطلع إلى حقيقي نابع من تطلع الأمة إلى وحدة حقيقية ومستقبل واعد يوجه الدفة منطلقا من مرجعيات هذه الأمة أولا .

لقد سبق أن تعرضت الأمة الإسلامية بمثل ما نتعرض له الآن وحاول المصلحون مثل الإمام الغزالي وابن تيمية مواجهة الأمور وقد هطل عليهم الغزاة من كل صوب من الشرق ومن الغرب صليبيون ومغول .

وكـــان أيضـــا من دعاة الإصلاح الأفغاني ومحمد عبده الذي واصل مســيرة الأفغاني واهتم بالإصلاح السياسي وركز على الإصلاح الداخلي للأمة الإسلامية ، وخاصة إصلاح الروح ورفع شعارات عظيمة قوية أولها العودة إلى ينابــيع الدين الأولى واحترام الثوابت وتحقيق العدالة بين أفراد الأمة فهو أساس مبدأ المواطنة وحب الإنتماء .

وأهــم دعــوة من دعوات محمد عبده هي البعد عن منازعات الفرق الإسلامية وفصل الفرق العقائدية عن النزاع السياسي لتوحيد كلمة الأمة .
وأنني أرى أننا نحتاج مع هذه القواعد إلى مبدأ هام وأساسي هو (إصلاح القلوب) لذلك كانت فكرة بحثي هذا.

لعلى أرشد إلى سبيل إصلاح قلبي يصل به إلى مرفأ آمن بعد أن عشنا القلق والحزن والإحساس بالعار في صراع مع عدو لم يرحم صغيرنا ولم يوقر شيخنا وسحق كرامة رجالنا، فكسرت قلوبنا وهامت أرواحنا.

وبذا تكون هناك حتمية لإصلاح ما فسد من القلوب لنستطيع مواجهة هذه الرياح الغربية الباردة التي جاءت بكل كيماويات الغدر لتتجرع ثرواتنا في شراهة فقدت معها ماهية الاستساغة إلى ما تبتلعه من ذهب أسود مغموس بدم مسلمين هبوا للدفاع عن الأرض والعرض.

فلعلنا نستطيع محو غبار هذه المحنة بإصلاح قلبي لهذه الأمة وإرساء مبدأ واحد وسبيل قويم.

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ "(١)

ولماذا القلب؟ القلب يشكل أساس الإعتقاد. حيث أجع الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر ومنهم مالك بن أنس والليث بن سعد، وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبو عبيد القاسم بن سلام وداوود بن على الطبري ومن سلك سبيلهم قالوا:

"الإيمان تصديق وقول وعمل، قول باللسان وهو الإقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة".

ويقول جمهور الأشاعرة والماتريدية:

" الإيمان هو التصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبكل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة. ومكان التصديق هو القلب"(٢).

ومن أسباب تأليف هذا البحث أيضا أنني كنت في جلسة علم في كلية الآداب جامعة القاهرة، وقلت لأحد الأساتذة كل سنة وأنت طيب والسنة الجاية في الحج فقال: لقد حججت بالنية. ألستم تقولون إن الأعمال بالنيات.

فقررت كتابة هذا البحث حتى لا يأخذ الناس بظاهر النصوص وتؤخذ على خلاف مقاصدها الشرعية خاصة أن أعمال القلوب هي رسالة السماء في بناء المعمورة وإعمارها. لهذا أوجه صيحتي بضرورة إصلاح القلوب حتى نجتاز هذه الأزمة. والله أسأل قلوبا واعية.

---

(١) سورة غافر: آية ٣٨

(٢) السفاريني(لوامع الأنوار البهية) صـــ ٤٢٠، المكتب الإسلامي.

ولقد أخترت من علماء المسلمين ثلاثة جمعوا بين علم الكلام والتصوف وهم:

الأول: الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي ـ ٢٤٣هـ. قال عنه ابن الخطيب:

" له كتب كثيرة في الزهد، وأصول الديانة، والرد على المعتزلة والرافضة، وقال عنه أبو منصور البغدادي: كان إماما في الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها، وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية"(١).

الثاني: هو أبو حامد الغزالي ولد في (٤٥٠هـ) في طوس، وتوفي في (٥٠٥هـ) في طوس أيضا. "وحكى أنه راجع العلوم وخاصة في الفنون الدقيقة والتقى بأربابها حتى تفتحت له أبوابها... وفتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شئ وحمله على الإعراض عما سواه حتى سهل ذلك عليه أن ارتاض وظهرت له الحقائق"(٢).

الثالث: فخر الدين الرازي تـ ٦٠٦ هـ قيل عنه:

"لئن كان الرازي قد اشتهر بالفلسفة وإتقانه لعلم الكلام، فهو مع ذلك صوفي، أتقن التصوف وعرف شيوخه وطرقه ومواجيه وأذواقه. قال عنه الإمام السبكي في طبقاته: " كان منأهل الدين والتصوف وله يد فيه وتفسيره ينبئ عن ذلك"(٣).

ولقد اتبعت المنهج البرهاني الذي يعتمد على القرآن الكريم وعلى الأدلة البرهانية في الإستدلال على أهمية القلب والإعتقاد.

والله أسأل التوفيق والسداد

مصر الجديدة في غرة صفر ١٤٢٦هـ.

---

(١) خيري سعيد (مقدمة الرعاية لحقوق الله) للمحاسبي صـ ٣- المكتبة التوفيقية.

(٢) طه عبد الرؤوف (مقدمة الإحياء) صـ ١٠- دار إحياء الكتب العربية.

(٣) الفخر الرازي(المباحث الشرقية) صـ ٢٦- دار الكتاب العربي.

معرفة القلب(١) من العلوم الأخروية فقد صنف الغزالي العلوم إلى علوم عقلية وعلوم شرعية، والعلوم العقلية إلى دنيوية وأخروية.
الدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف. والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله.
وقد أشار الله تعالى إلى أهمية الحياة الأخروية في قوله تعالى :
" يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ "(٢)

القلب في الإصطلاح:
هو لطيفة ربانية من العالم الروحاني .. هي حقيقة الإنسان والشئ العالم المدرك منه ...لها بالقلب الجسداني تعلق.
والمراد بالقلب في القرآن الكريم والسنة المشرفة: هو المعنى الذي يفقه في الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، ويكنى عنه بالعنصر المسمى قلبا للعلاقة التي بينه وبين الجسد.(٣).
ونجد تقاربا في التعريف الإصطلاحي بين ابن الخطيب والغزالي فكل منهما جعل القلب مصدر الإدراك، وأداة المعرفة في الإنسان. إنه هو العقل كما يراه ابن الخطيب ويقرره الغزالي. وقد قال صوفية الشيعة بنفس المعنى(٤)

---

(١) القلب في اللغة :
هو عضو صنوبري الشكل مودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو أهم أعضاء الحركة الدموية.
وقيل: سمى القلب قلبا لتقلبه. ويطلق على الفؤاد والعقل. وقلب الشئ لبه ومحضه.
وهناك أفعال يطلق عليها (أفعال القلوب) وهي ظن وأخواتها.
القَلْبُ: الفُؤادُ، أو أخَصُّ منه، والعَقْلُ، ومَحْضُ كلِّ شيءٍ، وماءٌ بِحَرَّةِ بني سُلَيْم (القاموس المحيط باب الباء حرف القاف).
(٢) سورة الروم آية ٧
(٣) ابن الخطيب(الله..والإنسان) ص ١٧٢-دار الفكر العربي
(٤) انظر يحي اليماني الزماري(تصفية القلوب من درن الأوزار والذنوب) وقد ظهر تأثره بالغزالي في الإحياء في هذا المؤلف. وقد قال اليونانيون بأن المتعلق بجوهر النفس هو القلب وبواسطة القلب يتعلق سائر الأعضاء.
يقول جالينوس طبيب اليونان(إن القلب هو الرئيس المطلق بسائر الأعضاء، وأن النفس متعلقةبه أولا وبواسطة ذلك التعلق تصير متعلقة بسائر الأعضاء) الفخر الرازي (النفس و الروح) ص٥١.

ويقول الفخر الرازي: إن جالينوس ربط بين النفس والعقل حيث قسم فـسيولوجيا الإنسان إلى ثلاثة:

١- النفس الشهوانية، وتتعلق بالكبد
٢- النفس الغضبية وتتعلق بالقلب
٣- النفس الناطقة الحكيمة وتتعلق بالدماغ

وقد جاء لفظ القلب بعدة معان:

أولا: بمعنى الروح:

أطلق الغزالي على القلب الروح:
(فالقلب والروح عندنا والمطمئنة كلها أسامي النفس الناطقة. والنفس الناطقة هي الجوهر الحي الفعال المدرك، وحينما نقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعنى بـه هذا الجوهر). (١)

وأكد هذا المعنى في الإحياء.
(الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين:
أحدهما: جنس لطيف منبعه تجويف القلبل الجسماني فينـشر بواسـطة العـروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النـور مـن الـسراج وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك حركة. والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخـار لطيـف أنضجته حرارة القلب)(٢).
وأكد الغزالي على أن هذا التعريف هو غرض الأطباء المعالجين للأبـدان، أمـا المعالجون للدين فإنهم يقصدون المعنى الثاني للروح وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذي شرحناه في معنى القلب.

وبذلك نجد أن الغزالي يجعل القلب والروح شيئا واحدا.

---

(١) الغزالي (الرسالة اللدنية) ص٠- دار الكتب العلمية
(٢) الغزالي (الإحياء) ص٣

ثانيا : بمعنى العقل :

جاء لفظ القلب في القرآن الكريم بمعنى العقل. في الآيات التالية قال تعالى:" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ "(١)

وقال تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا "(٢)

أي قلوب يعقلون بها كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل فجعل القلب محلا للتعقل.

وقال تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " (٣)

وقد أعتبر الرازي : " أن الإنسان وسائر الحيوانات متشاركة في قوى الطبيعة الغازية والنامية والمولدة ومتشاركة أيضا في منافع الحواس الخمس الباطنة والظاهرة وفي أحوال التخيل والتفكر والتذكر، وإنما حصل الامتياز بين الإنسان وسائر الحيوانات في القوة العقلية والفكرية التي شهدت إلى معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به فلما أعرض الكفار عن اعتبار أحوال العقل والفكر ومعرفة الحق والعمل بالخير كانوا كالأنعام).(٤)

وقد احتج العلماء بهذه الآية الكريمة على أن محل العلم هو القلب لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم.

---

(١)سورة ق آية ٣٧

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩

(٣) سورة الحج آية ٤٦

(٤)الفخر الرازي (التفسير الكبير) ج١٥ ص ٦٨-دار الفكر

ويقول الرازي في تفسيره لقوله تعالى: " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبالتي في الصدور" فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار، لأن الرؤية لها حظ عظيم في الأعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل. ولكن لا يكمل هذين الأمرين إلا تبرير القلب لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ويعتبر لم ينفع البتة ولو تفكر فيما سمع لا تنفع كأنهقال لأعمى في أبصارهم فإنهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه.

وقد قال المحاسبي بذلك وجعل القلب يرى حقائق اليقين وقال أن الغيب لا يرى بالعين، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين.
وأيضا قال بأن القلب بمعنى العقل في عبارته" إذا قطع العبد شغل جوارحه من الظاهر، وقطع فضول الفكر من الباطن، ومنع قلبه من الفكر إلا فيما يريد أن يتفكر فيه أجتمع همه وحضر عقله" (١).

ومعنى قوله تعالى : " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا "(٢).
يقول القاسمي في تفسير الآية: قال ابن جرير: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في أي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه السلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون.

(أم على قلوب أقفالها) أي فلا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر. و(الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول، وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها، وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة إذ لا يمكن فتحها أبدا). (٣).
فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدته وذخره. وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه، فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب غلى الله وهو العامل لله.(٤)

(١) المحاسبي (الرعاية) صـ ٤٩
(٢) سورة محمد : آية ٢٤
(٣) القاسمي (محاسن التأويل) ج١٥ ص ٥٣٨٧
(٤) الغزالي (الإحياء) ج٣ ص٢

وفي قوله تعالى: " وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ "(١)
قال مجاهد: المراد من القلب ههنا (العقل)
فكان المعنى أن الله يحول بين المرء وعقله والمعنى بادروا إلى الأعمال وأنتم تعقلون، فإنكم لا تأمنوا زوال العقول التي عند ارتفاعها يبطل التكليف.
وجعل القلب كناية عن العقل جائز كما في قوله: "إن في ذلك لذكري لمن كان له قلب"
وقد أطلق الترمذي على العقل مرادفا له وهو اللب.(٢)
وقال: إنه معدن نور التوحيد ونور مشاهدة التفريد.
وهذا اللب الذي هو العقل مغروس في أرض التوحيد، ترابها نور التفريد.(٣)
واللب لام اللطف والباء مشددة واحدة في الكتابة لكنها من الحروف المضعفة فهي في الحقيقة اثنان: باء البر في البداية وباء البقاء بالبركة عليه.
واللب لا يكون إلا لأهل الإيمان الذين هم من خاصة عباد الرحمن الذين أقبلوا إلى طاعة المولى، وأعرضوا عن النفس والدنيا، فسماهم الله أولى الألباب قال تعالى: " فاتقوا الله يأولى الألباب" (٤) وقال تعالى: " واتقون يأولى الألباب"(٥).
فإذا رجعنا إلى المعنى اللغوي بأن معنى اللب: هي عروق الرقة نجد أن هذا ما أراده الترمذي.
وقال تعالى : " وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ "(٦)
فمدح الله تعالى أولى الألباب وبين مراتبهم حتى أعجز أمثالنا عن إدراك أحوالهم لأنه خصهم بنور اللب.(٧) وبهذا يكون مقصد الترمذي الخاصة من أهل الكشف والبصيرة، وقد أطلق على العقل مترادفات أخرى فهو الحلم والنهى والحجر.

---

(١) سورة لأنفال: آية ٢٤
(٢) اللب: هي عروق في القلب يزعمون أنها رمز الرقة_ -قاموس المنجد- ص٧٠٩
(٣) الترمذي (بيان الفرق) ص ٩٢
(٤) سورة المائدة: آية ١٠٠
(٥) سورة البقرة: آية ١٩٧
(٦) سورة البقرة: آية ٢٦٩
(٧) الترمذي(بيان الفرق) ص ٩٤

قال تعالى: " إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى " (١)
وقال تعالى:" هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ "(٢)
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ثم الـذين يلونهم"(٣)

ثالثا: بمعنى الصدر:

قال تعالى: " إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ "(٤) .أي عليم بما في القلوب.
وقال إن "إنشراح الصدر والضيق إنما يضاف إليه (٥) ولا يضاف إلى القلب، قال تعالى: " فلا يكن في صدرك حرج منه"(٦). وقال تعالى: " فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك وضائق به صدرك"(٧)

وصدر المؤمن يضيق أحيانا من كثرة الوسواس والغم والشغل وتتابع الحوائج وإصابة المصائب. ويضيق أيضا إذا سمع باطلا لا يحمل قلبه ذلك(٨)

كما بين أن موضع الصدر من القلب كالصدفة من اللؤلؤة. ثم يؤكد الترمذي هذا المعنى فيقول وأما من جهة مجاز اللغة وتعارف الناس ربما يعبر بلفظ الصدر عن القلب.
قال تعالى: " قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ "(٩).

---

(١) سورة طه: الآيتان ٥٤، ١٢٨
(٢) سورة الفجر آية ٥
(٣) المعجم المفهرس ج١ ص ٥٠٤
(٤) سورة الأنفال آية ٤٣
(٥) يقصد الصدر
(٦) سورة الأعراف آية ٢
(٧) سورة هود آية ١٢
(٨) الحكيم الترمذي (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) ص٦٣
(٩) سورة آل عمران: آية ٢٩

وقال تعالى: " وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ". وقـال تعـالى: " وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ " (١).

وعنى بذلك القلب. ولكن عنى بها كلها قلوب الكفار لأن صدورهم صارت مؤصدة لخلوها من نور الهدى.

أما ما خرج إليه من داخل القلب من لطائف الحكمة وشواهد المنة فأستقراره فـي الصدر متمكن، وإنما لا تثبت في الصدر هذه الأحوال لأنه موضع ورود الأشغال والحوائج"(٢).

ولكن فرق الترمذي بين نور القلب ونور الصدر وقال : "إن نور الصدر له نهاية ونور القلب لا نهاية له ولا غاية ولا إنقطاع وإن مات العبد قال تعالى: "يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة "(٣).

رابعا: بمعنى النفس:

يقول الرازي: " هاهنا ألفاظ أربعة: وهي النفس والعقل والروح والقلب، وقد تذكر هذه الألفاظ ويراد بها جوهر النفس، وقد تذكر ويكون المراد منها غير ذلك"(٤).

أما الحكيم الترمذي فيعرف النفس فيقول: "إن أسم القلب أسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها، وفي الباطن مواضع منها ما هو من خارج القلب ومنها ما هو مـن داخل القلب ، فيشبه أسم القلب أسم العين، إذ العين أسم يجمع ما بين الشفرتين من البياض والسواد والحدقة والنور الذي في الحدقة، وكل واحد من هذه الأشياء لـه حكم على حده... وكل علم هو أرفع فموضعه في القلب هو أكن وأخص وأحـرز وأخفى وأستر، ولكن الصدر في القلب هو في المقام من القلب بمنزلة بياض العين في العين... وأما القلب فهو المقام الثاني فيه، وهو داخل الصدر وهو كسواد العين الذي هو داخل العين"(٥).

---

(١)سورة القصص آية ٦٩
(٢) الترمذي (بيان الفرق) ص ٦٤
(٣) سورة إبراهيم آية ٢٧
(٤) الفخر الرازي (النفس والروح) ص٧٨
(٥) الحكيم الترمذي (بيان الفرق) تحقيق نيقولا هير

ويستشهد بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " اليد جناح، والرجلان بريد، والعينان مصلحة، والرئة نفس، فإذا صلح الملك صلحت جنوده، وإذا فسد الملك فسدت جنوده(١).

فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القلب ملك. فبالصدر للقلب كالميدان للفارس، وبين عليه الصلاة والسلام أن صلاح الجوارح بصلاح القلب وفسادها بفساد القلب، فالقلب يخبر له السراج وصلاح السراج بالنور، وذلك النور نور التقى اليقين لأنه إذا خلا عن هذا النور كان القلب بمنزلة سرج طفئ نور سراجها.

نظرة الأشعرية للنفس:

إنها جسم طويل عريض عميق ذا مكان عاقل مصرف للجسد النفس والروح اسمان مترادفان والمسمى والمعنى واحد.

" فتتعلق النفس بالروح القلبي المتكون في جوفه الأيسر من بخار الغذاء ولطيفه فإن القلب له تجويف في جانبه الأيسر ينجذب إليه لطيف الدم فيبخره بحرارته المفرطة، فذلك البخار هو المسمى بالروح عند الأطباء، وعرف كونه أول متعلق للنفس بأن شد الأعصاب يبطل قوى الحس والحركة مما وراء موضع الشد ولا يبطلها مما يلى جهة الدماغ، وأيضا التجارب الطبية تشهد بذلك (وتفيده) أي تفيد النفس الروح بواسطة تعلق (قوة بها تسري الروح إلى جميع البدن)(٢).

كذلك يقول ابن حزم " النفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد و معناها واحد"(٣).

ويؤكد الغزالى على ثلاثة أنواع من النفوس ، هي : النباتية والحيوانية والإنسانية، فيقول" ... ثم نجد الإنسان فيه جميع ما في النبات والحيوان من المعاني، ويتميز بإدراك الأشياء الخارجة عن الحس مثل أن الكل أعظم من الجزء، فيدرك الجزئيات بالحواس الخمس، ويدرك الكليات بالمشاعر العقلية، ويشارك الحيوان في الحواس ويفارقه في المشاعر العقلية. فقابل الصورة الكلية جوهر لا جسم ولا عرض في جسم، ولا وضع له ولا أين فيشار إليه، بل وجوده أخفى من كل شئ عند الحس وأظهر من كل شئ للعقل. فثبت بذلك وجود النفس" (٤).

---

(١) علاء الدين حسام الدين الهندي(كنز الأعمال في سنن الأقوال) حيدر أباد ج١ص١٢٠٦

(٢) الإيجي ج٧ص٢٦٠-شرح المواقف ط دار الكتب العلمية- بيروت.

(٣) ابن حزم(الفصل في الملل والأهواء والنحل) ج٥ ص ٧٤ دار الفكر ببيروت

(٤) الغزالى(معارج القدس في مدارج معرفة النفس) ص ١٦، ١٧، ١٨

وعلى الرغم من أن د/ مجمود قاسم يقول إن الغزالى (قد فرق بين النفس والروح) إلا أنه يقول في نفس الصفحة: (فالنفس إذن همزة الوصل بين عالمين، ويدل على ذلك أنها تحتوى على قوتين تتجه إحداهما شطر عالم الحق، وتولى القوة الثانية وجهها نحو البدن فتخضعه لأمرها وترعى مصالحه. أما الروح فقد يطلق على النفس هذا المعنى.

وقد يراد به ذلك البخار اللطيف الذي ينبع من القلب ليصعد في العروق إلى المخ، ثم يهبط منه مرة أخرى بواسطة العروق، فينتشر في جميع أنحاء الجسم، ويكون سببا في حياتها و حركتها"(١).

ويؤكد الغزالي على أن المعانى الأربعة مترادفات فيقول:

" إن العقل يطلق ويراد به النفس الإنسانية، بمعنى أن جوهر النفس عقل وتفكير، وأنها من عالم العقل. وهناك معنى ثالث دارج إذ يستخدم لفظ العقل للدلالة على إحدى صفات النفس، وهي الإدراك الذي يقابل الإحساس"(٢)

وقال الباقلاني والأشاعرة: النفس هي النسيم الداخل الخارج بالنفس فهي النفس، والروح عرض وهو الحياة.(٣).

ويقول الترمذي: " وقد يعبر من جهة مجاز اللغة أيضا بالنفس عن القلب، قال الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام " تعلم ما في نفسي " (٤). يعنى ما في قلبي. وقال:" وأعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه"(٥) يريد به القلب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله عز وجل تجاوز عن أمتى ما حدثت نفسها" (٦)

---

(١)محمود قاسم (في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام)ص١٠٠ ط مكتبة الأنجلو

(٢) محمود قاسم (في النفس والعقل) ص ١٠٣

(٣) ابن حزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ج٥ ص ٧٤

(٤) سورة المائدة آية ١١٦

(٥)سورة البقرة آية ٢٣٥

(٦)المعجم المفهرس ج١ ص ٤١

فبان أن المراد من الحديث وساوس الصدور التي لا تستقر. فأما ما استقر في القلب فإنه يسأل عنه ويحاسب. قال تعالى: " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا"(١).

ولم يفرق المحاسبي بين القلب والنفس صراحة فنراه حينما تكلم عن النفس تكلم عن هوى النفس وسوء رغبة النفس فكانت هذه دلالة على أنها النفس الأمارة، واعتبر أن مكايد الشيطان لا تنال من المؤمن غلا إذا قابلها هوى نفس ولولا ذلك لكان أن يزداد قربه إلى ربه بسبب دعواته أي أنه حين دعى المؤمن فأبى كان باقتناعه مطيعا حين عصى من دعاه إلى ما لا يحب الله. وكان خوفه ورجائه ثوابا فأطاع الله فيما امتحن به.

قال تعالى: " إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً "(٢).
فالنفس تميل إلى فتن الدنيا والتفكر فيها والانشغال بها فهواها قاهر للعقل يغفل العقل وهي لا تغفل فلابد من معرفة النفس والحذر منها والتوكل على الله عز وجل ومودة وحب وطمأنينة .

ويجب على المرء مخاطبة النفس بالكتاب والسنة وإقامة الحجة وكشف خبثها وكذبها...فإن انقادت إلى الحق وإلا فيحذرها بالنار وشدة العذاب تنقاد إلى الحق.
وقد ذكر المحاسبي بعد ذلك أمراض النفس من العجب والكبر والحسد. ووضع لها العلاجات العقدية للتغلب عليها.

وفي النهاية:
القلب هو معدن نور الإيمان قال تعالى:" وقلبه مطمئن بالإيمان" والقلب هو معدن التقوى والسكينة والوجل والطمأنينة والخشوع والتمحيص والطهارة.
قال تعالى : " وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا "(٣).
وأشار بالإلزام إلى قلوبهم، وأصل التقوى في القلب وهي التقوى من الشك والكفر والنفاق والرياء.وأصل جميع الذنوب قساوة القلب.

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٦
(٢) سورة الكهف آية ٧
(٣) سورة الفتح آية ٢٦

وهو مدار تأكد وجوب الثواب والعقاب قال تعالى:" ولاكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم"(١). فالصدر موضع يصدر إليه علم العبارة، والقلب معدن العلم الذي تم به علم العبارة، وهو علم الحكمة والإشارة. وعلم العبارة(٢) حجة الله على الخلق، ومعدن نور الإيمان ونور القرآن معدن واحد، وهو القلب. وكلا النورين شكلان، قال تعالى: " مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً "(٣)
فجمع بين النورين بالهاء كناية الواحد...
" أن الكتاب المنزل كما كان جبريل عليه السلام تولى إنزاله بعلم الله تعالى، فمعدنه قلب النبي عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: " قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله"(٤).وقال تعالى: " نزل به الروح الأمين على قلبك".(٥)
وقد تناول علماء المسلمين موضوعات القلب لأهمية أعماله خاصة التصديق والاعتقاد الذي يليه العمل بالجوارح فالإيمان هو المرتبة الأولى لعمل القلب لأنه محل التصديق.
فالقلب السليم هو القادر على استقبال المعرفة وإدراكها. أمال القلب المريض فهو من انصرف عن إدراك هذه المعرفة. والقلب هو المهيمن على الحواس جميعها الحركة والبصر والسمع والكلام وبذلك يكون هو الأساس للقواعد الأخلاقية التي استقاها المسلمون من القرآن والسنة وأفردوا لها المؤلفات في علم الأخلاق.
قال الإمام على : إن الله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسر ذلك فقال: أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الإخوان وهو إشارة إلى قوله تعالى: " أشداء على الكفار رحماء بينهم"(٦).
وقال صلى الله عليه وسلم"إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه)(٧)
وتتضح أهمية موضوعنا من مفارقة القلب لسائر الجواهر وتميزه بحمل الأمانة قال تعالى: " إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسن إنه كان ظلوما جهولا)(٨).

---

(١)سورة البقرة آية ٢٢٥
(٢)علم العبارة : أي أن يعبر باللسان. وعلم الإشارة أي أن يشير بقلبه إلى وحدانية الله وعظمته.
(٣) سورة الشورى آية ٥٢
(٤) سورة البقرة آية ٩٧
(٥) سورة الشعراء الآيتان ١٩٣، ١٩٤
(٦)سورة الفتح ٢٩
(٧) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة
(٨) سورة الأحزاب آية ٧٢

وقال أبو الجورجاني: إن الله جل ثناؤه دعا عباده إلى الإخلاص من كل وجه وأخبر أن من كان في ظاهره وباطنه شئ غير الحق، لم يكن مخلصا لقوله تعالى: "وأن أقم وجهك للدين حنيفا"(١). معرضا عن الكل مقبلا على الكل حنيفا. أي مطهرا عن الأكوان وما فيها.(٢)

فالأمانة والإخلاص والصدق من أعمال القلب فالصدق موهبة من الله عز وجل فإذا وقر في القلب انصدع لذلك نور وكان له هياج في القلب وأخذ في الرأس وانتشر في سائر الجسد فتأخذ كل جارحة منه بقسطها من الصدق على قدر الكثرة والقلة من هيجان الصدق وعلى قدر ما وافق من ذلك من رقة القلب وصحة العقل.

والصدر والقلب والروح أطلق عليها الترمذي مقامات السر فليست هي عبارة باللسان وإنما حقيقتها إشارات إلى الأنوار، وقد وضعها الله من خزائن نوره. وحياة القلب بروح الحكمة وروح الصدق وروح المحبة وروح الولاية وروح الشهادة... وحياة الصدر بروح الإسلام، وحياة القلب بروح الإيمان، وحياة الفؤاد بروح المعرفة والمشاهدة، وحياة اللب بروح التوحيد والانفصال عن القوة والحول والاتصال بالحق.(٣).

ونجد أن الرازي والغزالي قد اتفقا في التعريف في أن العقل والروح والنفس والقلب مترادفات غير أن الترمذي زاد عليهم وتوسع في إضافة معاني أخرى مثل الصدر واللب والنهى.

الخطرات في اعتقاد القلوب:

ما هي الخطرات؟

هي هوى النفس

الأولى : تكون تنبيها من الله عز وجل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يجعل له واعظا من قلبه"(٤).

الثانية: تسويل وأمر من النفس، وكذلك قال عز وجل فيما يصف قول نبيه يعقوب، إذ يقول لبنيه: " بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل"(٥).

---

(١) سورة يونس آية ١٠٥

(٢) أبو طالب المكي (علم القلوب) ص١٧٢. مطبوع على هامش قوت القلوب.

(٣) الترمذي (بيان الفرق) ص١٢٠

(٤) السيوطي في الجامع الصغير ص ١٦

(٥) سورة يوسف آية ١٨

وقال تعالى: " إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ "(١).

والثالثة: تزيين ونزغ ووسوسة من الشيطان. وكذلك أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يفزع إليه بالاستجارة به من خطرات الشيطان فقال تعالى: " وإما ينزغنك من الشيطن نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم" (٢)

وسنتعرض بالتفصيل أكثر في هذه الجزئية في الصفحات التالية.

القلب والشيطان:

الشياطين هم رؤساء الجن، وهم موجودون بين البشر في الخليقة. وقد قال أهل السنة والجماعة(٣) بإثبات الملائكة والجن والشياطين (٤) وكفروا من أنكرهم من الفلاسفة والباطنية.

وقد جاءت الآيات بذكر أحوالهم.

قال تعالى: " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً "(٥).
وقال تعالى:" وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ "(٦).
وقال تعالى:" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ "(٧) وهم أعداء النبيين والمؤمنين.
والسؤال : هل الشياطين يعلمون ما يحدث في القلوب؟
نعم لأنهم هأجسام لطيفة تدخل إلى القلوب. قال تعالى: " الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس"(٨).

---

(١)سورة يوسف آية٥٣
(٢) سورة فصلت آية ٣٦
(٣)وقد اجتمع أهل الملة على ذلك
(٤) وقد ذكر لفظ الجن في القرآن الكريم بصيغتين"جان" مفرد نكرة سبع مرات و"الجن" جمع معرفة أربعة عشر مرة.
(٥) سورة الجن آية ١
(٦) سورة الأحقاف آية ٢٩
(٧)سورة الأنعام آية ١١٢
(٨)سورة الناس آية ٥، ٦
(٩) اخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر تخريج احاديث الاحياء الإصدار الثاني ، المجلد الثالث .

يقول البزدوي" قال امة أهل السنة والجماعة: إن الشياطين والجن ولاية إيقاع الوسوسة في قلوب بني آدم واكتساب سبب الجنون. ويحتمل أن طريق وسوستهم الدخول في النفس وإلقاء الوسوسة في القلب... وكذا يجئ منهم اكتساب سبب الجنون في حق بني آدم، إما إلقاء شئ في القلب أو في الدماغ أو بطريق آخر وهو مشاهد"(١).

فالقلب هو المكان الذي جعله الله تعالى مهبطا للرحمة الإلهية. لذلك يكون معترك الشياطين، ولكن هذا الاتصال يكون بخصوص الأمور الماضية وليس في المستقبل لأنها لا تتطلع على الغيب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله عز وجل خنس، وإن نسى الله التقم قلبه"(٢).قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن".

فمنظومة الخليقة منذ عصيان ابليس وخروجه عن طاعة الله جْعله يلهث وراء إنحراف البشر، ولكن الله تعالى يتولى قلب المؤمن برحمته وجعل وسوسة إبليس هي الإبتلاء والاختبار لقوة الإيمان.

قال تعالى:" وليبتلي الله ما في صدوركم"(٣) فدخول الشيطان إلى القلوب هو اختبار لقوة الإيمان في صدر المؤمن. وهذا الابتلاء هو الفيصل بين صدر المؤمن الذي هو مكان نور الإيمان والإسلام وصدر الكافر الذي هو مكان نور الإيمان والإسلام وصدر الكافر الذي هو مكان الجحود والعصيان وضاق عن نور الحق." فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا" (٤).

والابتلاء يكون بأماني النفس التي أعطيت ولاية التكلف بالدخول في الصدر والنفس، ثم تدخل في الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها فتظهر على العبد إمارات إيمانه أولا فإذا كان مخلصا داوم على تضرعه حتى يجيبه الله تعالى ويصرف عنه شر هذه النفس.

أما إذا سيطرت الوساوس على العبد فقد تمكن منه الشيطان بوسوسته في صدر العبد، وهو آخر ولاية النفس، لأن النفس الأمارة بالسوء شكل الشيطان وهناك نوعان من الشياطين.

---

(١) البزدوي (أصول الدين) ص ٢٣٤

(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر- تخريج أحاديث الأحياء الإصدار٢ للحافظ العراقي المجلد الثالث كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٤

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥

قال تعالى : " شَيَاطِينَ الإنس وَالْجِنِّ " (١).

هل يؤثر الشيطان على قلوب الأنبياء؟

قلوب الأنبياء عليهم السلام معصومة من ربهم من الوساوس ومنازعات النفوس، ولكن تضيق صدورهم إذا سمعوا الكفار يذكرون لله شريكا أو يكذبونهم إذا ذكروا وحدانية الله تعالى. ولا غاية لضيق الصدر إذا ضاق، وصدر كل واحد يضيق على قدر جهله وغضبه .

قال بعض الحكماء: بضاعة الشيطان خمسة أصناف، وعملائه خمسة: وهي الحسد ويشتريه منه العلماء. والكبر ويشتريه منه الأرذال. والجور ويشتريه منه الأمراء. والخيانة ويشتريها التجار والصناع. والكيد ويشتريه الفساد وسائر الضعفاء. وإنما يتحاسد العلماء إذا كان علمهم لغير الله وأرادوا به صرف وجوه الناس إليهم فهناك يحصل التحاسد بينهم والتزاحم عند الوظائف ويصير كل يطلب الرفعة على الآخر ويرى أنه هو العالم وأن غيره دونه فيطلب نقص غيره برفعة نفسه وليس هذا من شيم العلماء العاملين بعلمهم ولا من الإنصاف.

وقد شرح كل من المحاسبي والغزالي خطرات الشياطين ووصفوا لها العلاج. يقول المحاسبي: " إن الخطرات بدؤها من هوى النفس، أو من العقل بعد تنبيه الله عز وجل له أو من العدو، وهي على ثلاثة معان:

الأولى: تنبيه من الرحمن، وكذلك يروي عن غير واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " من يرد الله به خيرا يجعل له واعظا من قلبه"

الثانية: تسويل وأمر من النفس، وكذلك قال الله عز وجل فيما يصف قول نبيه إسرائيل عليه السلام إذ يقول لنبيه:" بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل"(٢).وقال تعالى: " إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ "(٣).

والثالثة: تزيين ونزغ ووسوسة من الشيطان، وكذلك أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يفزع إليه بالاستجارة من خطرات الشيطان فقال تعالى: " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم" (٤). وقال تعالى: " وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون" (٥).

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٢

(٢) سورة يوسف آية ١٨

(٣) سورة يوسف آية ٥٣

(٤) سورة فصلت آية ٣٦

(٥) سورة الأنعام آية ٤٣

لذلك قال بعض الحكماء : إن أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعجل بعقل الشهوة حتى تنظر في العاقبة. وأيضا قال أبيقور باللذات الدائمة والفرق بينها وبين النزعات.

الشيطان وذكر الله:

يفرق الفخر الرازي بين القلب الفارغ من ذكر الله والقلب الغني بالذكر. فإذا جاءت خطرة إلى قلب فارغ من الذكر. فإذا جاءت خطرة إلى قلب فارغ من لاذكر يوشك أن يقبلها إذ ليس فيه نور من ذكر الأخرة، ولا قوة اشتغال بالله عز وجل.وإذا كان لا يندفع الشيطان إلا بالاشتغال عنه بذكر الله وجب إبقاء هذا الذكر حتى تكون السلامة والسلاح في دفعه قويا، وكلما كان التشاغل عن ذكر الله أقوى كان السلاح أضعف، والعكس إذا ذكر الله أكثر كان السلاح أقوى.

ثبت بهذه المباحث أنه كلما كان ذكر الله في القلب أكمل وأجلى وعن الشوائب أصفى كانت القدرة على الدفع أكمل، لكن الاشتغال بذكر الشيطان شواب صفاء الذكر، وذلك يوجب ضعف السلاح. فكل ذلك يوجب نقض المطلوب، بل نقول: من كملت معرفته بالله فقد قوى حصن قلبه ومتى قوب الحصن عجز الشيطان عن النقب والسرقة، فكان هذا الطريق أكمل، وعند هذا توصلوا منه إلى شئ مهيب"(١).إذ جعل الرازي علاج خطرات الشيطان والنجاة منه بذكر الله والمداومة على الاشتغال بالعبادة والذكر فهذا يجعل القلب متيقظا حين يعرض الشيطان خطراته.

وهناك فرقة: جعلت ذكر الله عز وجل وذكر الشيطان في القلب مستويين، فكانما أمرت بذلك: ذكر الله تعالى وذكر الشيطان، والاشتغال بالله عز وجل والاشتغال بالشيطان، ولم يبلغنا على أحد من الأقوياء ولا من الضعفاء أنه فعل ذلك ولا دان به لأن الله عز وجل أمر عباده بطاعته، وندبهم إلى الاشتغال به عن خلقه: إبليس وغيره وأمرهم بالحذر منه حين يعرض بفتنة، فاشتغل أولياء الله عز وجل، وأهل الخاصة من عباده بذكر ربهم، وذكر ما ندب إليه وأحبه وألزموا قلوبهم حذر ما حذرهم منه، على غير انتظار له، ولا اشتغال بذكره.

والحذر يلزم القلب من العناية بالنجاة من العدو والخوف من فتنته ثم لا يمنع الاشتغال بالله عز وجل، مع ترك ذكر العدو والاشتغال به أن يهيم الذكر والتيقظ حين يعرض العدو بخطرته".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة أخذك شيطانك. أدمي ما من أحد إلا وله شيطان قالت: وأنت. قال : وأنا لكن دعوت الله عليه فأسلم"(٢).

---

(١) الفخر الرازي (النفس والروح وشرح قواهما) ص ١٨٠

(٢) عن عائشة أخرجه أحمد في مسنده.

وساوس الشيطان ونزغه.

مداخل الشيطان إلى القلب:

أولها: الغضب والشهوة. فإن الغضب هو غول العقل.

ثانيها: الحرص والبخل.

ثالثها: الحسد فيقول الشيطان فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما.

رابعها: الطمع لأنه إذا غلب الطمع لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر في حيلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلي ذلك.

ويقول الغزالي: "إنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطانا يخصه ويدعو إليه فأما طريق الاستبصار فذكرهيطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو اختلاف البيان يدل على اختلاف الأسباب"(١).

وهناك فرق بين الوسوسة والخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق.

لذلك قال تعالى:" وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ "(٢).

علاج القلب من الشيطان:

وضع علماء المسلمين (٣) العلاج لمواجهة النزع والوسوسة:

أولا: بالعلم: يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم عدم بلوغ القلب إلى العلم إلى الشياطين فيقول_صلى الله عليه وسلم_ لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء(٤).

فالوسوسة في مقابلة الإلهام. فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك. وقد قال صلى الله عليه وسلم؛ " في القلب لمتان. لمة من الملك بإيعاذ بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو إيعاذ بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم" ثم تلا قوله تعالى: " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ "(٥).

---

(١) الغزالي (الأحياء) ص ٣٧

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤

(٣) أنظر مؤلفات المحاسبي والترمذي والغزالي والفخر الرازي

(٤) حديث أبي هريرة

(٥) سورة البقرة آية ٢٦٨

وقال الحسن: " إنما هما همان يحولان في القلب هم من الله تعالى وهم من العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده". ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن".

والمقصود ليس الإصبع الحقيقية ولكن المقصود التغيير والتحريك. والله تعالى يفعل ما يفعل بتسخير الملك والشيطان في تغليب القلوب. أو يتقي خطره من التنبيه على الخير يحسبها من تسويل النفس أو تزيين الشيطان فلن يميز بين ذلك ولا يعرفه إلا بالعلم والتثبت بالعقل ومثل ذلك كمن هو في ظلمة شديدة في الطريق مخوفة من الآبار والزلل في المطر الوابل، فلن ينفعه بصره بغير سراج ولن ينفعه السراج إن لم يكن له صحيح. ولن ينفعه البصر والسراج إن لم يرم بصره حيث يضع قدمه ويتثبت، فإن نظر إلى السماء أو التفت ونظره صحيح وسراجه يزهر ولم يرم بطرفه إلى الأرض كان كمن لا بصر له، ولا سراج معه.

وإن هو رمى بطرفه نحو الأرض ولا سراج معه، كان كمن لا بصر له. فمثل البصر الصحيح كمثل العقل، ومثل السراج، كمثل العلم. ومثل النظر بالتثبيت مثل بالعقل والاستضاءة بالعلم وعرض ما يخطر على الكتاب والسنة، وليس في أكثر ذلك طول مكث لمن علم إنه إنما يراد منه أن يكون حذرا، فإذا سنحت الخطرة بالاعتراض عرفها في مثل لمح البصر. للعلم المتأصل في قلبه إذ يقظه الحذر لذلك، حتى يأتي الشئ الذي يلتبس عليه ويشتبه فعند ذلك يمكث حتى يعلم....

جعل الدليل القرآن والسنة:

كما جعل المحاسبي رد هذه الخطرات من الرجوع إلى أدلة القرآن والسنة قال: الرعاية عند الخطرات، يعد اعتقاد جمل حقوق الله تعالى فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها، فلم يقبلها باعتقاد الضمير، ولا يتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التمني وغيره، إلا أن يشهد له العلم أن الله تعالى قد أمر بها.

وإعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل منهم، ونحو ذلك من الخطرات أو إلى القدر بالتنزيه لله تعالة، وإلى رأي جهم بنفي التشبيه لله تعالى، وإلى رأي جهم بنفي التشبيه لله تعالى، إلى التشبيه بنفي رأي جهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف(١) بالغضب لله تعالى، أوإلى الإرجاء بتعظيم الأقدار، وتنزيه الإيمان من النقصان لأن الخاطرة هي أول حديث النفس ثم يغذيها الشيطان حتى تستولي على الفكر وتصبح معتقدا.

وقد تخطر الخطرة إلى بدعة في الجملة يحسبها سنة، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطرت بها الخطرات مما تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة، فكذلك أهل السنة، لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون، ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها. لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم، ورضائهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة وهو يرى أنه سنة، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتجويع العيال وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على العيال والأهل والأولاد والخروج في السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين، وبتحريم الدواء والدعاء، وبالاشتغال بالله عز وجل بترك الفرائض وترك النوافل، ودعوى البصائر، واستثارة القلوب بإدعاء علم الغيوب من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون.

ويحتجون في ذلك بأثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم : المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال. كالقدر ورأي جهم، والرفض، والاعتزال، ونحوه فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما يحب الله عز وجل من الأعمال والسنن إلا بشاهد علم، بأ، الله عز وجل أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه، ولا تخطر خطرة فينفيها، أو يحجب قلبه عنها غلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل قد نهى عنها وذمها بسببها وعللها وأوقاتها.

---

(١) يقصد الخروج على الإمام

فإنه قد تخطر بقلب العبد الخطرة داعية إلى خير فينفيه، وهو يحسب أنها شر، وقد تدعو إلى سنة فينفيها، وهو يحسب أنها بدعة يزينها له عدوه، ومما يدل على ذلك: أن قلوب أهل البدع إذا خطرت بها خطرة تبعثهم على اعتقاد السنة نفوها وحسبوها بدعة، ولن يدع العدو أن يدعو العبد المريد إلى نفي خطرات التنبيه على الخير والشر لئلا يقلبها لأن على العباد وإن أرادوا الله عز وجل، أن يصبوا الحق بذلك. وقد ذم الله عز وجل، قوما ولم يعذرهم بأن رأوا أن الشر خير والخير شر، فقال جل وعز "وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" (١). وقال عز وجل: : أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا"(٢).

التحصين:

لقد عمل الصوفية على أن يتحصن المؤمن من إبليس وشياطينه " وقيل حصون المؤمن من إبليس أربعة: المساجد، وقراءة القرآن بالتفكير فيه، والصلاة، والنظر يقع عند الوسوسة. وفي القراءة لا يكاد ينجو من ذلك.

إذا كان هذا حال إبليس والشياطين. فكيف الحذر منهم؟

إذا أمرنا الله عز وجل بمجاهدة من لا نراه، وخونا منه، وأعلمنا أن في ظفره بنا الهلكة، ولا يكون في قلوبنا شئ أغلب عليها ولا ألزم لها من حذره، فننتظر متى يعرض بفتنته.

لأن الاشتغال عنه يورث النسيان، والنسيان يورث قبول خطراته بغير معرفة، وذلك يؤدي إلى الهلكة.

فرأت أن تكون قلوبها منتظرة للشيطان، متوقعة متى تخطر بها خطرة فينظروا فيها، كراهة أن يخطر على غفلة فيقبلوه، فيهلكوا وهم لا يشعرون.

وقالت فرقة: ذلك غلط، لاشتغالها بانتظار الشيطان، ولم تؤمر بذلك، وذلك إرادة الشيطان منا، أي نخلي قلوبنا منذكر الله عز وجل وذكر الآخرة وتغمرها بذكره وارتقاب خطراته، ولكن نلزم قلوبنا ذكر الآخرة، وذكر ما يعرض، فلا نكون قد تعطلنا من ذكر الآخرة، ولا نكون ناسين لمن أمرنا بحذره، كراهة أن يأتي على غفلة منا فيفسر علينا ما نحن فيه من الذكر، فكان ذكر الله عز وجل، وذكر وساوس الشيطان في قلوبهم متعارضين.

كلما ذكروا شيئا من ذكر الآخرة ذكروا العدو شفقا أن يخطر بفتنته، فيزيل قلوبهم عن ذكر الله عز وجل، أو يركنوا إلى ما يحبط عملهم في يوم عرضهم على ربهم، جل وعلا.

---

(١) سورةالكهف آية ١٠٤

(٢) سورة فاطر آية ٨

وقالت فرقة وهم أهل العلم وأولى بالحق: كلتا الفرقتين غالطة. أما الأولى ففرغت قلوبهم من ذكر الآخرة، وجعلت عبادتها إلزام قلوبها ذكر الشيطان، فقد أدخلت ذكر الشيطان من القلب غلطا أكثر مما أدخلت ذكر الله عز وجل في قلوبهم.
وإنما أمرت بالحذر من أن تغفل عن الذكر والعمل فإذا ودعت الذكر فقد أصاب العدو ما أراد.

القلب والاعتقاد:

أهتم العلماء الثلاثة بمكانة القلب وإظهار دوره في الإعتقاد فنجد أن المحاسبي ركز على مكانة القلب وأثره في حياة الإنسان وبدأ كتابه بقوله تعالى:
" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ "(١)
فقال تعليقا على الآية الكريمة : " فمن استمع إلى كتاب الله عز وجل، أو إلى حكمه، أو علم، أو إلى موعظة، وهو لا يحدث نفسه بشئ غير ما يستمع إليه، وقد أشهد قلبه ما يستمع إليه، يريد الله تعالى بذلك، كان له فيه ذكرى، لأن الله تبارك أسمه قال ذلك، وهو كما قال، وبذلك وصف المؤمنين، وأمرهم به.
وبدأ كتابه بباب معرفة التقوى والتقوى محلها القلب. وقد أهتم أيضا كل من الرازي والغزالي بالقلب لأن رسوخ العقيدة بالقلب هو المنطلق إلى الأعمال الصالحة وإلى تناغم قلوب الصالحين في أنشودة الإصلاح المجتمعي والنهوض بالقاعدة الإسلامية. قال تعالى:" أولئك كتب في قلوبهم الإيمان"(٢).
وقال تعالى: " وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ "(٣).
وكان اهتمام الغزالي بالقلب عظيما وظهر ذلك في المؤلفات العظيمة فكان الإحياءى والرسالة اللدنية ومكاشفة القلوب ورسالة في النفس.
ولكن المحاسبي حدد مواريث التقوى واعتبرها أول العدة التي للمقام بين يدي الله تعالى وتكون التقوى في السر والعلانية، ليأمن القلب في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور.
وقد وضح ما يناله المؤمن من تقوى قلبه وخوفه فكانت قلوبهم مثيرة ونفوسهم عزيزة، وأغناهم عن خلقه قال تعالى:" إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"(٤).

---

(١) سورة ق آية ٣٧
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢
(٣) سورة الحجرات آية ٧
(٤) سورة النحل آية ١٢٨

وجمع مواريث التقوى في قوله:" فهل على من كان الله عز وجل معه بالنصر والمعونة ضيم أو خذلان؟ فهم أعز الخلائق أنفسا، وأنورهم قلوبا وأغناهم به غنى، وأطيبهم عيشا، حزنهم فيما يسر به الناس، وسرورهم فيما يحزن له الناس، وطلبهم لما يهرب منه الناس، وهربهم مما يرغب فيه غيرهم من أهل الغفلة، يستأسون إذا استوحش الناس، إذ كان أنسهم بالله جل وعز وحده استكمالا لمناجاته، فعنده يضرعون بقولهم، وإليه يضرعون في حوائجهم، وقد اتخذوا حرزا وكهفا، وثقوا به دون خلقه وانقطعوا إليه عز وجل عن كل قاطع يقطعهم عنه، فاستوحشوا حين استأنس الناس استيحاسا من الخلائق واستئناسا بربهم"(١).

فجعل المحاسبي أول منزلة العابدين هي تقوى القلوب لأنها أساس العمل وأصل الطاعة، وليتفقد قلبه ليرى إذا كان حذرا من اطلاع الله عز وجل على ما يضمر فيه وكان عقله حارسا لهواه في يومه ذلك، فلم تخطر بقلبه خطرة يكرهها الله عز وجل"(٢).

وحدد أن أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء والإخلاص في ضمائر القلوب.
وقد عنون أبوابا كثيرة في كتابه بأعمال القلب ووضع العلاجات للبعد عن الذنوب فيقول:
(فإذا أراد هذا العبد المصر أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبعثه على التوبة من ذنوبه، فليعن بطلب الخوف بالتخويف بالفكر في المعاد، وهجوم الموت وعظيم حق الله عز وجل وواجب طاعته، ودوام تضييعه لأمره، وركوبه لنهيه"
وقد فسر الرازي نفس اية الكريمة " إن في ذلك لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع فهو شهيد"(٣).
وأكد على حصول العلم اللدني. فيقول :
" وأعلم أن هذه الآية مشتملة على لطيفة عجيبة، إلا أن بيانها يتم بتقديم سؤال، فإنه يقال

---

(١)المحاسبي (الرعاية) ص١٩
(٢)المحاسبي (الرعاية) ص٢٤
(٣) سورة ق آية ٣٧

إن الواو العاطفة أليق بقوله:

"أو (ألقى السمع) من الواو القاسمة، وذلك حصول الذكرى لابد فيه من مجموع أمرين : لابد فيه من إلقاء السمع لأن القلب عبارة عن محل إدراك الحقائق، وإلقاء السمع، عبارة عن الجد والاجتهاد في تحصيل تلك الادراكات والمعارف.

ومعلوم أنه لابد من الأمرين معا فكان ذكر الواو القاسمة هذا أليق من ذكر الواو العاطفة، إلا أن نقول بل الحق أن الواو القاسمة أولى من واو العاطفة.

القلب محل التصديق والإيمان:

من أعظم أعمال القلب أنه محل الإيمان والتصديق فكلما ذكر الإيمان في القرآن الكريم كان مضافا إلى القلب. قال تعالى: " قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ "(١). وقال : " إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ "(٢) وقال: "وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ "(٣) وقال: "كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ " (٤). فثبت أن محل هذه المعارف هو القلب، وإذا كان محل العلم والإرادات هو القلب كان الفاعل هو القلب، وإذا كان كذلك فهو المخاطب والمثاب والمعاقب(٥).

والقلب محل التنزيل والوحي، فقال تعالى: " مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ "(٦).

القلب محل العلم:

أرجع العلماء العلم إلى القلب وقد أثبت الرازي أن القلب محل العلم فقال: "إن العقلاء يجدون الفهم والادراك والعلم من ناحية القلب بواسطة تعلق النفس بالقلب، وإذا كان محل العلم هو القلب وجب أن يكون محل الإرادة هو القلب لأن المريد للشئ يكون عالما به، وذلك الذي هو المريد يجب أن يكون بعينه عالما. وإذا كان محل الإرادة هو القلب، وجب أن يكون محل القدرة هو القلب لأن ذلك الذي هو القادر يجب أن يكون بعينه هو المريد فثبت أن مجموع كل هذه الصفات في القلب(٧). وجعل القلب هو العاقل المطلق، وسائر الأعضاء تابعة له

---

(١)سورة المائدة آية ٤١

(٢) سورة النحل آية ١٠٦

(٣) سورة الحجرات آية ١٤

(٤) سورة المجادلة آية ٢٢

(٥) الفخر الرازي (النفس والروح) ص ٥٦

(٦) الرازي (المطالب العالية) ج٦ ص ١٦٥ دار الكتاب العربي ببيروت.

قال تعالى: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ "(١).
دلت الآية الكريمة على أن موضع العقل والفهم والجهل والغفلة هو القلب.
وروى أن أسامة بن يزيد لما قتل الكافر الذي قال : لا إله إلا الله قال له النبي صلى الله عليه وسلم: لم قتلته فقال: لأنه قال هذه الكلمة عن خوف. فقال صلى الله عليه وسلم: وهلا شققت عن قلبه؟ فهذا يدل على أن محل المعرفة هو القلب.

القلب وبناء المنطق:

قال تعالى: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ " (٢). وقال تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" (٣). إطلاق إسم القلب على العقل تسمية الحال بأسم المحل.
يقول الفخر إن الآية الأولى تحمل أسرار بناء علم المنطق لما لاح تقريرها من اكتساب العلوم الفكرية من القوة العقلية الألهية في أن يبقى مصونا عن الخلل والزلل. فتأكذ هذا الفرقان البرهاني بالبيان القرآني. والعقل هو التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة.
ويقول الفخر: إن الحكماء يطلقون أسم العقل على إدراكات القوة العاقلة ويقولون: إن النفس الإنسانية قابلة لإدراك حقائق الأشياء فلا يخلو إما أن تكون خالية عن كل الإدراكات أو لا تكون خالية فإن كانت خالية مع أنها تكون قابلة لتلك الإدراكات فهي كالهيولي التي ليس لها إلا طبيعة الاستعداد فتسمى في تلك الحالة عقلا هيولانيا وإن لم تكن خالية فلا يخلو إما أن يكون الحاصل فيها من العلوم الأوليات فقط، أو يكون قد حصلت النظريات مع ذلك. فإن لم تحصل فيها إلا الأوليات التي هي الألة في اكتساب النظريات فتسمى في تلك الحالة عقلا بالملكة. وقد فرق بين حالتين للنفس:
الحالة الأولى: هي القوة الحدسية وهي سرعة الانتقال للأوليات.
الحالة الثانية: حصول الأوليات مع تلك النظريات التي تستحضر بمجرد التذكر وتوجه الذهن إليها، أو تكون نظريات حاصلة بالفعل في الحقيقة فكأن صاحبها ينظر إليها. فيطلق عليها في الحالة الأولى عقلا بالفعل ، وعلى الحالة الثانية عقلا مستفادا.وقد اتفق الفخر الرازي مع الغزالي في آن العقل هو التصورات (٤) والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة، والعلم يحصل بالاكتساب.

---

(١) سورة الحج آية ٤٦
(٢) سورة ق آية٣٧
(٣) سورة الحج آية ٤٦
(٤) الغزالي (معيار العلم) ص ٢٦٨، ٢٧٨

ويؤكد الفخر أن المعرفة تكون تكرار التـصور، والتـصور اسـتقرار الإدراك، والإدراك اللقاء والوصول.

والفهم تصور المعنى من لفظ المخاطب، والإيهام هو إيصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع، وأما العلم فإنه تصور يكون معه تصديق وهو إثبات معنى لمعنى أو نفيـه عنه.

وقد اتفق الفخر مع الغزالي في جعل السمع والبصر جنودا للقلب لأنه من المعلوم أن السمع والبصر لا فائدة فيهما إلا بما يؤديانه إلى القلب. قال تعالى:

"ولقد مكنهم فيما إن مكنكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عـنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء" (١).

القلب والجزاء:

إن الجزاء المستحق لا يكون إلا على ما في القلب من السعي والطلب. قال تعالى:

" لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم"(٢).

وقال تعالى: " لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ "(٣). ثم ذكر الله تعالى في آية أخرى أن موضع التقوى هو القلب، فقال: " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى " (٤) وقال تعالى: "وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ "(٥).

القلب محل التمييز بين الحسن والقبح:

الإنسان له قوتان قوة عاملة وأخرى عاقلة. القوة العاملة هي الأفعال الإنسانية وهذه الأفعال قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة، وذلك الحسن والقبح قد يكون العلـم بـه حاصلا من غير كسب وقد يحتاج فيه إلى كسب فاكتسابه إنمـا يكـون بمقـدمات تلائمهما فإذا يتحقق هاهنا ثلاثة أمور:

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٦
(٢) سورة البقرة آية ٢٢٥، المائدة آية ٩٢
(٣) سورة الحج آية ٣٧
(٤) سورة الحجرات آية ٣
(٥) سورةالعاديات آية ١٠٠

أحدها: القوة التي يكون بها تميز بين الأمور الحسنة وبين الأمور القبيحة. وثانيها: المقدمات التي منها تستنبط الأمور الحسنة و القبيحة .وثالثها: نفس الأفعال التي توصف بأنها حسنة أو قبيحة. وأسم العقل واقع على هذه المعاني الثلاثة باشتراك الأسم.

والحسن والقبيح قضية هامة وخطيرة بين المتكلمين حيث اعتبرتها المعتزلة أصلا أصيلا ودافعت عنها. أما الأشاعرة فتقول: "العقل لا يدل على حسن شئ ولا قبحه في حكم التكليف، وإنما يتلقى التحسين والتقبيح من موارد الشرع وموجب السمع. وأصل القول في ذلك أن الشئ لا يحسن لنفسه وجنسه وصفة لازمة له، وكذلك القول فيما يقبح وقد يحسن في الشرع ما يقبح مثله المساوي له في جملة أحكام صفات النفس".

ويميز الغزالي بين قلب الإنسان وقلب الحيوان الذي يدرك في حدود الغريزة ويضرب المثل بالشاه التي تعلم العداوة معها فتهرب حين تراه. أما قلب الإنسان فقد استأهل القرب من الله وذلك لتميزه بالعلم والإرادة.

العلم: بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية.

وهذه خاصية تميز بها الإنسان عن الحيوان، فهي العلوم الكلية الضرورية وهذه أمور وراء المحسوسات.

مثل تصور الإنسان بأنه من المحال أن يكون بمكانين في آن واحد.

الإرادة: فبعد أن يدرك الإنسان عاقبة الأمور وطريق الصلاح بالعقل تنبعث من ذاته أشواق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة بها.

لأنه لو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباحث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل ضائعا على التحقيق.

والنتيجة التي وصل إليها الغزالي في ذلك أن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك منها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبي قبل البلوغ.

أما بعد البلوغ فيقرر الغزالي أن هناك درجتين للعلم:

أولا:

العلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية غير حاصلة إلا أنها ممكنة قريبة الحصول.

ومثاله الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد.

ثانيا:
أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له كاتب وإن لم يكن مباشر الكتابة بقدرته عليها وهذه الحالة غاية درجة الإنسانية.

ولكن الغزالي يعتبر أن هذه الدرجة يختلف فيها البشر في المراتب ويتفاوت فيها الخلق بكثرة المعلومات وبشرف المعلومات وحسنها وطريق التحصيل.

ويقف الغزالي عند طريق التحصيل ليعلن مراتب كثيرة مختلفة:

١- قلوب يكون تحصيل العلوم فيها بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة.
٢- قلوب يكون تحصيل العلوم فيها بتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطئ الحصول.
٣- قلوب الأنبياء تنكشف لها كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف إلهي في أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقي هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله ولا حصر لتلك المنازل.
وإنما يعرف كل سالك منزلة لاذي بلغه في سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما أن نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي.

وقد أظهر الغزالي سبب حجب العلوم عن القلوب:
فقال: " ما فتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها- وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن إنما تظهر في لاقلوب النتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها"(١).
وقال في الحديث القدسي: " من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا"(٢).

---

(١) حديث أبي هريرة، متفق عليه
(٢) المرجع السابق

ولكن عندما تحجب هذه العلوم تكون بأسباب عيوب في القلوب ذاتها من نقص في القلوب(١) من خبث وكدورة وشغل. فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى.

ومحل العلم هو القلب فهو اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح. فلا تتجلي له العلوم لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته.

فالإقبال على طاعة الله والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال تعالى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا "(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم :" من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم"(٣).

أو يكون القلب معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة.

فإن القلب المطيع الصالح وإن كان صافيا فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل

الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكرة إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية. فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها وأيضا وضع الغزالي سببا ثالثا لعدم انكشاف الحقائق ألا وهو الاعتقاد الناتج عن التقليد.

إن من الممكن أن يكون القلب مطيعا ومتجردا ولا ينكشف له لكونه محجوبا عنه باعتقاد سابق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق. ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد.

" فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشريف وإليه الإشارة بقوله عز وجل:

" إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ "(٤).

---

(١) مثل قلب الصبي أي قبل البلوغ

(٢) سورة العنكبوت: آية ٦٩

(٣) حديث أنس ذكره أبو نعيم في الحلية

(٤) سورة الأحزاب آية ٧٢

إشارة إلى خاصية الإنسان التي تميز بها عن السموات والأرض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الأمانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ومطيق لها في الأصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول إلى تحقيقها الأسباب التي ذكرناها" (١).

طرق تحصيل العلم:

يحصل القلب العلوم بعدة طرق: قال الغزالي: " فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري وتارة تكتسب بطرق الاستدلال والتعلم فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب، وحيلة كالدليل يسمى إلهاما والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا و استبصارا.

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل له هذا العلم وعلى السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب والأول يسمى إلهاما ونفثا في الروع. والثاني يسمى وحيا وتختص به الأنبياء. والأول يختص به الأولياء والأصفياء والذي قبله المكتسب وهو بطريق الاستدلال يختص به العلماء"(٢).

القلب وسلامته:

تؤخذ العلوم الدينية من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيها بعد السماع وبه كمال صفة القب وسلامته عن الأدواء والأمراض.

فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها كما أن العقل بالكلية جاهل والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور.

وأمراض القلوب لا يمكن علاجها غلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية، واكتفى بالعلوم العقلية استضر كما استضر المريض بالغذاء(٣).

---

(١) الغزالي (الأحياء) ج٣ ص ١٣

(٢) المرجع السابق ص ١٨

(٣) المرجع السابق ص١٧

القلب والشوائب :

يحلل الغزالي تركيبة قلب الإنسان فيقول :" إن الإنسان قد اصطحب في خلقته أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والشبق. ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى : " قل الروح من أمر ربي". فإنه يدعى لنفسه الربوبية ويحب الاستيلاء والاستعلاء والرياسة، ويشتهي الاضطلاع على العلوم كلها ليدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بجميع الحقائق.

.. ومن حيث يختص البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين"(١).

وينتهي إلى أن هذه الأصول الأربعة أي الربانية و الشيطانية والسبعية والبهيميه مجموعة في القلب.

ويرى الغزالى أنه من المفروض أن يحكم العقل في تسييس الصفات الأخرى من الشهوة (البهيمية) والغضب(السبعية) والشيطانية لو استقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله والتزين بصفات شريعة مثل العفة والقناعة والهدوء ولازهد والورع والتقوى والإنبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والشجاعة والكرم وضبط النفس ولاصبر والوقار. وهذا القلب هو الذي يستقر فيه ذكر الله تعالى.

ينتقد الغزالي الصوفية الذين اعتبروا أن الطريق إلى الله بعدم الحرص على دراسة العلم. "بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة.

(١) الغزالي (الاحياء) ج٣ ص١٠

ويخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شئ سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصير عليه أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه إلى أن يمحو عن القلب صورة اللفظ ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الإنتظار لما يفتح الله من الرحمة".(١)

ثم يوضح الغزالي نقطة هامة:
إن الصوفي في أثناء ملازمته هذا الطريق قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت خيلات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقى في خيال واحد وعشرين سنة. والسبب الذي يرجع إليه الغزالي في ذلك هو عدم إتقان العلم قبل التزام الطريق. فيقول : "ولوكان قد اتقن العلم من قبل لا نفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فالاشتغلا بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض"(٢).
فلابد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لابأس بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك يالمجاهدة.

أنواع القلوب:
قسم الرسول صلى الله عليه وسلم القلوب إلى عدة أنواع حديث أبي سعيد الخدري وأبى كبشة الأغواري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: القلوب أربعة. { قلب فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن. وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر. وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب النافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق مثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المديتين غلبت عليه حكم بها}.

(١) الغزالي (الاحياء) ج٣ ص١٨
(٢) المرجع السابق

وقد جاءت لفظة القلب في القرآن الكريم في مائة واثنين وثلاثين آية اقترنت جميعها بأعمال القلوب، وأهمها التصديق.
فكانت مكانة القلب ودرجته في اعلى الدرجات لأن أول التصديق هو الإيمان.
{فإن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق والرسول حق والجنة حق والنار حق. وهذا علمه أوجب محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب له ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب تدل على السبب... إن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف}(١).
وبناء على درجة التصديق في القلب كانت مكانة القلب وإشراقاته لأن العلم علمان. علم الظاهر وعلم الباطن، علم الظاهر بالعلوم الدنيوية والشرعية. أما علم الباطن فهو إشراقات البلصيرة وقد قالت الصوفية بالعلم الباطن واستدل الترمذي بحديث الرسول : " العلم علمان علم باللسان فذلك حجة الله على خلقه وعلم بالقلب فذلك العلم النافع"(٢).
وتعوذ الرسول فقال : اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع" (٣).
وقال أيضا:" نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب"(٤).
ويؤكد الترمذي على أن العلمين لا يستغنى أحدهما عن الآخر لأن أحد العلمين بيان الشريعة وهو حجة الله تعالى على خلقه، والآخر بيان الحقيقة التي وصفت بعضها، فعماده القلب والنفس بهما جميعا، وصلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة وصلاح باطنه وقوامه بالعلم الآخر، وهو علم الحقيقة.
والدليل على ذلك أن صلاح الدين بصحة التقوى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"التقوى هاهنا وأشار بيده إلى قلبه"(٥).
فمن اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن فهو منافق، ومن اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم العلم الظاهر ليقيم به الشريعة وأنكرها فهو زنديق"(٦).

---

(١) السفاريني (لوامع الأنوار) ص٤١٤
(٢) كنز الأعمال ج٥ رقم ٤٠٥٠، ٤٣٣٨ والجامع الصغير للسيوطي المجلد الرابع
(٣) كنز الأعمال ج١ رقم ٣٦٣٣ والجامع الصغير للسيوطي المجلد الثاني .
(٤) كنز الأعمال ج٥ رقم ٤٤٤٠، ٤٤٤١ والجامع الصغير للسيوطي المجلد الاول .
(٥) علل
(٦) الترمذي (بيان الفرق) ص ٦٩

وقد صدق الباقلاني على أن القلب هو محل التصديق {وأن يصدق القلب بأن الله إله واحد، وأن الرسول حق، وأن جميع ما جاء به الرسول حق، وأن جميع ما جاء به الرسول حق، وما يوجد من اللسان وهو الإقرار وما يوجد من الجوارح وهو العمل، فإنما ذلك عبارة عما في القلب، ودليل عليه.

ويجوز أن يسمى إيمانا حقيقة على وجه، ومجازا على وجه. ومعنى ذلك: أن العبد إذا صدق قلبه بما قلنا وأقر بلسانه وعملت جوارحه فهو المؤمن الحقيقي عند الله وعندنا.

وأما من كذب بقلبه وأقر بالوحدانية بلسانه وعمل الطاعات بجوارحه فهذا ليس بمؤمن حقيقة وإنما هو مؤمن مجازا، لأن ذلك يمنع دمه وماله في أحكام الدنيا، لأنه مؤمن من حيث الظاهر، وهو عند الله غير مؤمن. قال تعالى: " مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا " (١).

فأخبرت الآيات الكريمة أن نطق اللسان بالإيمان لا ينفع مع إصرار القلب على الكفر وإقرار اللسان بالكفر لا يضر مع تصديق القلب"(٢).

القلب ونور الباطن ومقامات السر:

اعتبرت الصوفية أن هناك نورا ينبثق من القلب من قوة التصديق ينير لصاحبه طريق العلوم.

"الإيمان يتولد منه خوف ورجاء ونور المعرفة يتولد منه خوف ورجاء، وكذلك سائر الأحوال التي تهيج من القلب وتتولد من أنوار الباطن مثل الشكر والصبر والمحبة والحياة والصدق والوفاء"(٣).

واعتبر أن هذا النور مستمد من النور الإلهي. قال تعالى:" اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "(٤).

(١) سورة النحل آية ١٠٦

(٢) الباقلاني (الانصاف) ص ٨٦ مكتبة الخانجي- القاهرة

(٣) الترمذي (بيان الفرق) ص ١٠٢

(٤) سورة النور آية٣٥

وأسماء مقامات السر مثل الصدر والقلب هي عبارة باللسان، وإنما حقيقتها إشارات إلى الأنوار، وقد وضعها الله من خزائن نوره، وحياة القلب بروح الحكمة وروح الصدق وروح المحبة وروح الولاية وروح الشهادة .فحياة الصدر بروح الإسلام، وحياة القلب بروح الإيمان، وحياة الفؤاد بروح المعرفة والمشاهدة، وحياة اللب بروح التوحيد والانفصال عن القوة والحول والتصال بالحق.

وقد ميز الترمذي بين قلوب البشر غير الأولياء وقلوب الأولياء "قلوب أولياء الله تعالى خزائن الحكمة، ومواضع الرحمة، ومعادن المشاهدة، وكنوز المعرفة، وبيوت الكرامة، ومواضع نظر الله جل جلاله إليها برحمته، ومزرعة رأفته، وأواني علمه وأخبية حكمته، وأوعية توحيده، ومواضع فؤاده ومساكن عوائده وأكنة أنوار من نوره، ينظر إليها برحمته في كل لحظة، فيزيد أنوارها ويصلح أسرارها، وقد زينها الله بنور الإيمان، وأسسها بالتوكل على الرحمن، وحشاها من لطائف الامتنان... وطيب أرضها بنور الحق والهدى حتى طابت تربتها من خبث الشرك والشك والنفاق وسائر الفواحش، فهذه الأرض أرض المعرفة سقاها الله من بحر الرضى حتى نبتت فيها من أنوار النفس، وأيدها حسن معالجة أصحاب البساتين ".

وقد قسم المحاسبي القلوب إلى ثلاثة أنواع:

أحدها : المحبة، بتعظيم قدر الطاعة، والسخط بتعظيم قدر الذنب في الجرأة، وهذا هو القلب الطاهر.

ويستشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : روى معاذ بن جبل_رضى الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يقول : أيها الشاب الباذل شبابه لي، التارك شهوته من أجلى، أنت عندي كبعض ملائكتي"(١).

وآخر_ تائب من بعد صبوته، وراجع إلى الله سبحانه عن جهالة ونادم على ما سلف من ذنوبه في أيامه، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شئ من فرضه، ولا يعاود شيئا مما سلف منذنوبه، والنفس معه تنازعه إلى عادتها، لترده برغبتها إلى لذتها، وهو يقمعها ويجاهدها، حتى يمده الله عز وجل بمعونته فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه فقال عز وجل : " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا "(٢).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية٥/٢٣٧. وعن عمر في كنز العمال للمتقي الهندي_المجلد الخامس عشر-الترغيب الأحادي من الأكمال.

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩

فوعدهم الله تبارك وتعالى أن يحملهم على الطريق المستقيم، ويـريهم الحـق نهارا سرمدا.

والثالث: مصر على ذنبه، مقيم على سيئاتهونسيانه، يغلبه الهـوى وضعف الخوف، مقر مع ذلك بأن لله عز وجل معادا يبعثه فيه وهـو لا يتغـشاه بـه، ومقاما يوقفه فيه ويسئله عما كان منه، وثوابا وعقابا يصرفه من بعد الؤال إلى أحدهما، ثم يحل فيه مخلدا إلا ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليـد فـي العذاب الأليم.

أبواب القلب:

للقلب بابان:

الباب الأول : باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللـوح المحفـوظ وعـالم الملائكة.

الباب الثاني: باب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والـشهادة يحاكي عالم الملكوت نوعا من المحاكاة.

وينفتح باب عالم الملكوت لمن انفرد بذكر الله تعالى.

قال صلى الله عليه وسلم : سبق المفردون قيل ومن هم المفردون يا رسول الله ؟ قال المتنزهون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم.

ووضع ثلاث خلال تكون علاجات لإصرار القلب على الذنوب:

الأولى: قطع راحة القلب عن النظر في الدنيا بالذكر في الآخرة لأنه إذا تفكر سجن عقله عن الدنيا، فقطعه عن راحته بالفكر في الدنيا والنظر في أمورها.

الثانية: أن التفكر في المعاد وشدائده تلذيع للنفس، وغم لها حين تذكر المعـاد والحساب، ومالها وماعليها، لأن الموحد المقر إذا تفكر في ذلك هاج منه الغم والحزن لإيمانه بذلك فيثقل الفكر على النفس من أجل ذلك، لإنه يثقل عليها ما أهاج عليها الأحزان.

الثالثة: أن النفس والعدو قد علما أن المريد إذا أراد الفكر في معاده أنه إنمـا يطلب بالفكر خوفا يقطعه عن كل لذة لا تقرب إلى ربه ويحملـه علـى كـل مكروه يتحمله فيما أوجبه عليه ربه.

فالنفس يثقل عليها الفكر إذا علمت أنه إنما يطالب بما يقطع به عنها لذتها أيام حياتها، ويحملها على ما تكره، فإذا هاج الخوف قذف القلب بالإصرار علـى الذنوب، وسخا عنها نفسا فندم وتاب وأناب.

أهل التقوى من أهل الرعاية:

اعتبر المحاسبي أن أهل التقوى من أهل الرعاية لحقوق الله عز وجل ورتبهم على منازل:

المنزلة الأولى: عند ورود الخطرات التي ترد على القلب من العلل، والأسباب، والأوقات، والإيرادات.

المنزلة الثانية: الذين أغفلوا الرعاية: عند الخطرات في أعمال القلوب مما ليس للبدن فيه عمل، حتى جالت قلوبهم بالفكر فيما كره الله عز وجل، ثم تيقظوا قبل أن يعتقدوا بقلوبهم، ففزعوا وصرفوا قلوبهم عن ذلك.

المنزلة الثالثة: الذين أغفلوا الرعاية والمراقبة عند الخطرات وعند الفكر في أعمال قلوبهم، حتى اعتقدوا ما كره الله عز وجل، من أعمال قلوبهم مما لا عمل للبدن فيه، مثل العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن، وماأشبه ذلك والبدعة، ثم تيقظوا وفزعوا وذكروا الله عز وجل فندموا وخلوا ما عقدوا عليه من ذلك بالتوبة إلى الله عز وجل.

المنزلة الرابعة: الذين أغفلوا المراقبة لله عز وجل، والرعاية لحقه حتى هموا وعزموا أن يأتوا ما كره الله عز وجل بجوارحهم، ثم تيقظوا ورهبوا، فندموا على ما أضمروا واعتقدوا وخلوا ما عليه عقدوا بضمائر قلوبهم.

المنزلة الخامسة: الذين أغفلوا مراقبة الله عز وجل وتقواه حتى ابتدأوا بالعمل بجوارحهم بما كره الله عز وجل، من لحظة بعين، أو إصغاء بأذن أو مد بيد، أو خطوة برجل ثم تيقظوا وفزعوا وخافوا الله عز وجل قبل أن يتموا ما كره الله عز وجل من العمل.لقوله تعالى: "وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً "(١).

المنزلة السادسة: الذين غفلوا مراقبة الله عز وجل، وتقواه حتى استحثوا ما كره الله عز وجل من العمل وفرغوا منه، ثم فزعوا وندموا، فتابوا إلى الله عز وجل وأقلعوا ولم يصروا علىشئ مما كره الله بعدما تيقظوا.

(١) سورة يونس آية ٦١

المنزلة السابعة: الذين أغفلوا رعاية حقوق الله عز وجل، حتى فرغوا من الأعمال التي يكرهها الله عز وجل، ثم فزعوا عند بعضها فأقلعوا عن بعضها وأقاموا على بعضها، ولم تسخ(١) أنفسهم بالتوبة.

القلب والنية:

وهذه الجزئية من أسباب تأليف هذا البحث. فما هي النية؟

هي :" إرادة العبد أن يعمل بمعنى من المعاني، إذا أراد أ، يعمل ذلك العمل لـذلك المعنى، فتلك الإرادة نية، إما لله عز وجل وإما لغيره". لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:" وإنما لكل امرئ ما نوى"(٢) لأنها نية للمعنيين: نية أ، يعمل العمـل، ونية أن يعمله لمعنى من المعاني، دنيا أو آخرة.

وقد فرق أبو طالب المكي بين النية والأمنية: النية هي مباينة الهوى فيم أراد بـه العابد قربه إلى الله مما أمر به وندب إليه، أو أبيح له، في ترك ما تمنى عنه ممـا يتعلق بشأ، الآخرة، فهذه هي النية وهي التي يحتاج إليها المؤمن في عمله.

وأما الأمنية: فهي على ضربين منها ما يكتب للعبد بها حسنة، وهي ما تمناه مـن القربات وغبط به الصالحين من الخيرات.

كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: لاى حسد إلا في أثنتين رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، فهذا إن تمنيت مكانته كتب لك مثل فضله. والرجل الثاني: رجل آتاه الله حكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس(٣).

ويقول الغزالي:

" فمبدأ الأفعال الخواطر ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء، والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر أعنى إلى ما يضر في العاقبة وإلى ما يدعو إلى الخير أعنى إلى ما ينفع في الدار الآخرة فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسـمين مختلفـين. فالخـاطر المحمود يسمى إلهاما، والخاطر المذموم أعني الداعي إلىالشر يسمى وسواسا"(٤).

(١) سخيت النفس : أي تركته ولم تنازعني إليه نفسي
(٢) حديث صحيح (البخاري) في كتاب بدء الوحي_رواه عمر بن الخطاب
(٣) حديث صحيح (البخاري) الجزء الاول – باب الزكاة .
(٤) الغزالي (الإحياء) ج٣ ص٢٥

وسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطانا.

واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقا والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا.

النية قلب القلب

" النية قلب القلب لأنه لولا أن القلب محل النية لما عرف قيمة القلب ولا صلاح للقلب في مقاصده إلا بإحكام النية. والنية قائد العمل فكما لا تصل القافلة إلى محل الأمن والسلامة إلا بمعرفة القائد، كذلك لا يصل العمل إلى الله تعالى إلا بخلطان النية فيه والنية أول القصد"(١). وقوة القلب بقوة النية فإن قويت نيته في عمل الخير قوى القلب بها، وإن ضعفت نيته إزداد القلب ضعفا بضعفها.
و"النية فرض الفرض وأصول الأصول"(٢).

الأدلة على وجوب النية:

قال ابن مسعود: "من هاجر يبتغي شيئا فهو له".
وعن عبادة بن الصامت قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من غزا لا ينوي إلا عقالا فله مانوى"(٣).
فمفهوم النية هو عزم القلب على العمل، أما إذا عزم ولم ينفذ لعائق فإن الله يثيبه، وأما إذا عزم ولم ينفذ لخضوعه لخطرات الشياطين، فإنه لا يثاب لأن عزيمته لم تكن صادقة، لذلك كان الأمر الإلهي بمجاهدة وساوس الشياطين والجهاد بالعقل بما استودعها الله عز وجل من المعرفة والعلم ما هاج من دواعي غرائزهم ونزع الشيطان وتزيينه للنفس ما في غريزتها موافقا لها. فعلى العبد المجاهدة ونهى النفس عن هواها.

---

(١) أبو طالب المكي (علم القلوب) ص ١٧٦
(٢) المرجع السابق ص ١٨٥
(٣) أخرجه النسائي في كتاب الجهاد(٦/٢٤/٢٥) حديث صحيح

القلب والجنة:

إن الجنة هي المأوى ولكن المأوى لمن؟ الجنة هي المأوى لأصحاب القلوب الصادقة المؤمنة العالمة. قلب العـارف بالله تعالى الموقن خير من ألف قلب من العوام. قال تعـالى: " وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ "(١). وقال تعالى: " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ "(٢). وفسرها ابن عباس فقال: فقلوب الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات في الجنة. "يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بـين السماء والرض". فتفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم.

القلب وشواهد الطريق:

إن الحكم تظهر على القلب بالمواظبة على العبادة والذكر فتنكـشف لـه بطريـق الكشف والإلهام. قال صلى الله عليه وسلم: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقـه فيمـا يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما تعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار". وقال تعالى: " وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ " (٣).

فجعل الله تعالى لمن يلتزم التقوى مخرجا من الإشكالات والشبه ويرزقة من حيث لا يحتسب، يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة. وقال صلى الله عليه وسلم: العلم علمان فعلم باطن في لاقلب فـذلك هـو العلم النافع"(٤).وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه، وعلم في القلب فذلك العلم النافع"(٥).

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩

(٢) سورة المجادلة آية ١١

(٣) سورة الطلاق آية ٢

(٤) أخرجه الحافظ العراقي في المجلد الثالث من تخريج أحاديث الإحيـاء كتاب شرح عجائب القلب

(٥) أخرجه الترمذي في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلا بإسناد صحيح وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن.

النتائج

إن النتيجة التي خرجت بها من هذا البحث هي أن أسباب الانهيار الأخلاقي المنتشر على الساحة الإسلامية هو البعد عن إصلاح القلب وعدم نظر الناس إلى قلوبهم. ومواجهة وساوس الشيطان ومحاربتها.

قال الحسن: الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان.(١)

ويقول الرازي: الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان. (٢) وهذا هو موت القلوب. وسبب ذلك هو مرض القلوب أولا وليس بالمرض العضلي ولكن المرض قسمان:

القسم الأول: هو المرض بالشبهة التي توجب اتباع الظن.

القسم الثاني: هو المرض بالشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس.

ومن أمراض القلوب الجزع: "فالجزع حال قلب المريض بالدنيا قد غشيته دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه، وضيق عليه مسالك الآخرة وصار في سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله(٣).

فيجب السعي إلى توعية شاملة عن دور الشيطان وإطلاعه على ما في القلب وتأثيره ومغرياته والعمل على نشر العلم الذي يستمد محاور جدله من القرآن والسنة.

تحدث المتكلمون من الصوفية على القلب وكيفية إصلاحه وتغلب الشياطين على ضعاف القلوب.

لمزيد من حماية المجتمع الإسلامي من الانحرافات: توسع كل من المحاسبي والغزالي والفخر في أهمية القلب ومدى خطورة هذا الجزء من بدن الإنسان ومع ذلك فإنه لا يوجد إلا القلة هي التي تنظر إلى لاقلب بعين الرعاية، وترك الصفات المرزولة التي انتشرت في مجتمعنا من حب المادة وانتشار الرشوة وغياب الضمائر.

---

(١) الإمام أبو الحسن الأشعري (مقالات الإسلامين) ج١ ص ٣٢٣. المكتبة العصرية

(٢) الفخر الرازي (التفسير الكبير) المجلد الثامن ج١٦ ص ١٦٠

(٣) أبن القيم (الروح) ص ٣١٩- دار ولى الإسلامية

جعل المحاسبي التقوى أساس افصلاح القلبي. وأطلق عليها "مواريث التقوى" وجعلها في السر والعلانية لأنها أساس العمل وأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء والإخلاص في ضمائر القلوب.

كما وضع المحاسبي ثلاث مناهج لتكون علاجات لإصرار القلب على الذنوب:
الأول: النظر في أمور الأخرة
الثاني: تذكر المعاد والحساب
الثالث: الخوف وعدم الإصرار على الذنوب.

لقد وضع الغزالي طريقا للإصلاح القلبي وحدد خطواته بأن يحكم العقل في تسييس الصفات البهيمية والسبعية وهي الغضب والشيطانية وهي الكيد. فغذا فعل ذلك نجح في أول درجة للإصلاح القلبي. الدرجة الثانية هي : استقرار الصفات الربانية من العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور وتزيين الصفات الشريفة وهي الدرجة الثالثة. وهذه الصفات الشريفة هي العفة والهدوء والزهد والتقوى والورع وحسن الهيئة والشجاعة والكرم وضبط النفس والصبر والوقار. أما الفخر الرازي فقد جعل المداومة على ذكر الله حتى لا يأتيه الشيطان ويوسوس له بارتكاب المعاصي.

ولقد سعى العلماء الثلاثة على الإصلاح القلبي لما له من آثار حميدة على المجتمع الإسلامي حيث إن كل من كتبوا عن المدينة الفاضلة أو الإصلاح المجتمعي فإن الالتزام بما قاله العلماء من نشر القيم التي تسد المنافذ أمام الشيطان فتكون الأخلاق الحميدة هي المهيمنة على التعامل بين أفراد المجتمع فتكون الآثار على كل نواحي الحياة الاجتماعية في حسن المعاملة بين الناس والحياة الإقتصادية عندما تنتشر القناعة والرضا وتختفي السرقة والرشوة.

والله أدعو التوفيق والسداد

د/فايزة محمد خاطر

المراجع

١- القرآن الكريم
٢- تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير) -دار الفكر
٣- الألوسي (روح المعاني) دار الفكر
٤- صحيح البخاري -دار إحياء التراث العربي
٥- صحيح مسلم -دار الفكر
٦- الإيجي (شرح المواقف) مطبعة السعادة-القاهرة
٧- أبو طالب المكي(قوت القلوب) . دار الفكر
٨- أبو طالب المكي (علم القلوب) . مكتبة القاهرة
٩- الباقلاني (الإنصاف) مكتبة الخانجي -القاهرة
١٠-الباقلاني (التمهيد) . دار الفكر العربي
١١- أبن القيم (الروح) دار ولي الإسلامية
١٢- البزدوي (اصول الدين) تحقيق هانز مبيترلنس- مكتبة الإسكندرية
١٣- الجرجاني (التعريفات) دار الكتب العلمية-بيروت
١٤- الجويني (الإرشاد) مكتبة الخانجي- القاهرة
١٥- الحارث المحاسبي(الرعاية لحقوق الله) المكتبة التوفيقية
١٦-الحكيم الترمذي (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب) ـ تحقيق د/ نقولا هير
١٧- الرازي (الأربعين في أصول الدين) مكتبة الكليات الأزهرية .
١٨- الرازي(المباحث المشرقية) دار الكتاب العربي
١٩- الرازي (المطالب العالية) دار الكتاب العربي
٢٠- الرازي (النفس والروح) معهد البحوث الإسلامية- كراتشي
٢١- السفاريني(لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية) المكتب الإسلامي
٢٢- الغزالي (مكاشفة القلوب) دار الفجر للطبع والنشر
٢٣-الغزالي (الرسالة اللدنية) ضمن رسائل الغزالي- دار الكتب العلمية
٢٤- الغزالي (إحياء علوم الدين) ط دار إحياء الكتب العربية- بيروت

١

٢٥-الغزالي (معارج القدس في مدارج النفس) -مكتبة الجندي - القاهرة
٢٦-عبد الكريم الخطيب (الله والانسان) دار الفكر العربي
٢٧-محمود قاسم (في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والإسلام) مكتبة الأنجلو
٢٨-محمد عبد الكريم الشهرستاني (الملل والنحل) دار الفكر
٢٩-محمد عبد الرحمن المنجي (دواء القلوب المقرب لحضرة علام الغيوب) المكتبة الأهلية - الرياض
٣٠-د. مصطفى حلمي (اعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة) دار الدعوة-ط٢-الاسكندرية
٣١-المعجم الفلسفي - جميل صليبا
٣٢-لسان العرب
٣٣-قاموس المنجد - المطبعة الكاثوليكية
٣٤-يحيى الدميري (مضيعة القلوب) دار الحكمة العمانية